سميح القاسم

ألمُثل

وقصائد أخرى

مؤسسة الأسوار - عكا

سميح القاسم



أَلمثّل

وقصائد أُخرى

مؤسسة الأسوار – عكا

منشورات مؤسسة الأسوار - عكا

الطبعة الأولى - ٢٠٠٠

الغلاف للفنانة ارينا كركبي

المطبعة العربية الحديثة - القدس - هاتف: ٠٢-٦٢٧٢٥٦٤

قصائد الديوان

خمسون...

البئرُ بئري. وهذا الماءُ من مَطَري

والشأنُ شأني. قُراحي كانَ أم كَدَري

بئري. ومائي. وطيني صائراً جَسَداً

وصائراً بلداً. بَدْواً إلى حَضَرِ

هنا ابتدأتُ. وشبَّتْ نُطفتي أُسَراً

أصلابُها أُسَرٌ. تمتدّ في أُسَرِ

وصعَّدتْ همَّتي. توقاً لهمَّتها

وغوَّرتْ سكّتي فاستنهضَتْ شَجَري

بيتاً فبيتاً غرستُ السفحَ عافيةً

وقلتُ للمرجِ: كُنْ، بالأخضَرِ النَّضِرِ

وقلتُ للريحِ: هُبِّي باللقاحِ كما

يهوى جموحُ الهوى عيداً لمزدهرِ

وقلتُ للأرضِ: لوضنَّتْ مواسمُنا

مواسمُ الخيرِ وعدُ الكدْحِ. فانتظري!

هُنا خَلَقْتُ هُنا من كلِّ جارحةٍ

من كُلِّ ناضحةٍ. من كلِّ مُعْتَصَرِ

أنا بلادي. بذارُ الحُبِّ حنطتُها

وزيتُ زيتونها مصباحُهُ وَطَرِي

وعُشبُها لُغتي لَو كابرتْ لُغةٌ

ولو خبا قمرٌ. ليمونُها قمَري

وغازَلَتها شعوبُ الأرضِ قاطبةً

لكنَّها آثرتْ عزفي على وَتَري

وللمهادِ مهودٌ. في سلالتِها

جيلٌ يصيحُ بجيلٍ: عُدتُ من سَفَري!

هنا القناديلُ. والليلُ المغيرُ على

منابعِ الضوءِ. غرّاً ضاقَ بالعِبَرِ

هـا "أُسـامـةُ". وشـمـاً. فـي مـلامـحـه

"إبنُ الولـيدِ". وبعضُ الوشمِ من "عُمَرِ"

هـنـا قميصُ "صلاح الدين" متَّشِحاً

زهـورَ "حـطّين" فـي قيلولـةِ الـظَّفَرِ

وتـذكُـرُ الأرضُ كـفّـاً أنـعـمتْ فـكـفَتْ

حُبّاً وخصباً. ولـم تـبـخـلْ بمُـدَّخَرِ

وتـذكُـرُ الأرضُ قـلـبـاً أدمـنـتْـهُ عـلـى

عُـرسٍ عـلـى مـأتمٍ، فـي جَـنَّـةٍ– سَـقَرِ

هـنـا المـقـابـرُ. أجـدادٌ وصـيَّـتُـهُـم

بـلـوغُ أحـفـادِهـم. أُنـثـى إلـى ذكَـرِ

ونَسْجُ أكفانِهِم ملءَ الردى علماً

للصاعدينَ. سرايا ساعةِ الخَطَرِ

وإنهَّا نكبةٌ حَلَّت على سِنَةٍ

من ساهرينَ. حلالٌ لاسمِهِم سَهَري

ما قدَّروا أنَّ في أثوابِهم نَسَماً

يستدرجُ النارَ بين الريحِ والشَّرَرِ

وإنها نكبةٌ من نكبةٍ. رفعتْ

قَدْرَ الضعيفِ على أقدارِ مُقْتَدِرِ

تباطأتْ زمناً. واستعجلتْ زمناً

حتى غدا زمني سَجّادةَ الإبَرِ

واشهرتْ كَفناً. واستبدلتْ كفناً

وسوّغتْ كفناً من جلدِ مُخْتَضَرِ

وأوغلتْ في خطايا الدمّ. لائمةً

أنّي صرختُ بها: يا نكبةُ اختصري!

لا. لن تمُري على روحي وفي جَسَدي

إلا ليولدَ طفلٌ يقتفي أثَري

ويوقظُ النارَ من غيبوبةٍ بَهَظَتْ

رمادَ عنقائها بالصمتِ والضَّجَرِ

يا لعنةَ البغي. أعطي البغيَ بُغْيتَهُ

بما اشتهيتِ. ولا تُبقي. ولا تَذري

مشيئةُ الدم أن يختار كوكبُهُ

مدارَهُ. ومداري في الثرى العَطِرِ

أنا بلادي. وبي منها بدايتُها

ولي نهاياتُها. وِرداً على صَدَرِ

أنا بلادي. فجاجُ "النقْب" خاصرتي

و "كرملُ الله" صدري. والمدى بَصَري

وما "الجليلُ" سوى وجهي. فهل شَخَصَتْ

عينٌ تُطالعُهُ. إلا رأتْ صُوَرِي؟

أَنا بلادي، فمنذا مُبْلِغٌ خبري

لقومِ لوطٍ، ترى مَن مُبْلِغٌ خَبري؟

علـى "سـدومَ" سـديمٌ مـن غـوايـتـهـا

وفـي "عـمـورةَ" عُـرسُ الـسَّـادرِ الأشـرِ

خـمـسـونَ مـجـزرةٌ. خـمـسـونَ مـقـبـرةٌ

من سـيـرةٍ أُقـحـمـتْ بـالـنـارِ فـي الـسِّـيَـرِ

وقـومُ لـوطٍ سـكـارى خـمـرةٍ عُـصـرتْ

مـن بـؤبـؤيَّ. ومـن قـلـبـي. ومـن ثَـمـري

خمـسـون حـبـلاً عـلـى عنْقـي وفـي رئـتـي

خـمـسـون نـصـلاً فـمـا لـلـمـوت لـم يَـزُرِ؟

خـمـسـونَ سـجـنـاً.. ودوريٌّ أُراودُه

يـدنـو ويـنـأى عـلـى شـكٍّ وفـي حَـذَرِ

خمسون دهراً. بلى، في برهةٍ عبرتْ

تُساومُ الموتَ عن أوجاع مُصْطَبِرِ

وتصطفيني بشيراً صوتُهُ دَمُهُ

وحُلْمه قمُهُ المنذورُ للسُّوَرِ

يا قومَ لوطٍ. ويا قومي، أقولُ لكمْ

أرى بقلبي، أرى باللمسِ والنَّظَرِ

أرضُ العجائبِ لم تنضبْ عجائبهُا

ولاَ تنكَّرَ عَفْوُ الله للبَشَرِ

وتهمسُ القدسُ في قلبي نبوءَتَها

ويُشمِسُ القلبُ.. ميعاداً مع القَدَرِ

ويُشرقُ اللهُ في روحي. ويُشرقُ في

سِتْرِ اليقينِ، يقينٌ غيرِ مُستَتِرِ

بنى المسيحُ على صَخْرٍ كنيستَهُ

ودولتي. أنا أبنيها على حَجَرِ!

(ألقيت للمرة الأولى في مهرجان صفورية - أيار ١٩٩٨)

صولوا وجولوا

صُولوا كما شاء الضلالُ وجُولوا

حطبُ الجحيمِ السّادرُ الضلّيلُ

يا أيها الضعفاءُ في جبروتكم

كم ذا أذلَّ القاتلَ المقتولُ

يا أيها الفقراءُ في إثرائكم

كنزُ الوجود ضمائرٌ وعقولُ

وخطاكُمُ قَصُرت وطال طريقكم

والظلمُ صكٌّ والجنونُ كفيلُ

ومناحةٌ ليليَّةٌ أحلامُكم

ولدى النهار فظائعٌ وعويلُ

من أي ماضٍ تُقبلون بحاضرٍ

يغتالهُ المستقبلُ المجهولُ

ولأي أفق ترحلون وسخطكم

حمأٌ على أُفْق الحياة يسيلُ

القتلُ كي ترثوا القتيلَ سبيلُكم

تَبَّت يدٌ ورثت وتبَّ سبيلُ

مجد الدم المسفوك نورٌ خالدٌ

وستخلدون ومجدكم قابيلُ

لا تحسبوا القتلى حصاداً سائباً

دمعُ اليتيم حجارةٌ سجّيلُ

يا من غرستُم في القبور منازلاً

وعلى الضحايا الرقصُ والتهليلُ

تبنون؟ أحجارُ البناءِ تضجَّرَتْ:

للعار بيتٌ بالخنا مأهولُ

عجباً لأشداقٍ تدِرُّ عدالةً

أما الأكفُّ فمخلبٌ مسلولُ

ولَكَمْ بكيتمْ في الورى حريةً

وبلادُنا في ليلكم باستيلُ

والثائر القدّيسُ صار "مخرباً"

في عرفكم والخاتلَ المختولُ

عجباً عجاباً كيف في ناموسكم

يتماثل التحريمُ والتحليلُ

باسم السماءِ تدنّسون سماءنا

وكأنما الفاتوم جبرائيلُ

وإذا غدا التلمودُ حكماً ناجزاً

ما يفعل القرآنُ والإنجيلُ؟

سُدّوا على الشمس النوافذَ، حسبُكم

هذا الظلامُ السابغُ المسدولُ

وخذوا من الفولاذ عجلاً قاتلاً

صلّوا له، اهتزوا لديه وميلوا

جرحي أبو الوطن الجريحِ وأمُّهُ

ودمي لديه مواسمٌ وفصولُ

والقيدُ طقسٌ والعذابُ عبادةٌ

والذلُّ دَيْنٌ والرحيلُ حلولُ

بدويةٌ في النقْبِ تلك شقيقتي

وابني المثلثُ والحفيدُ جليلُ

والقاسطون الطارئون طحالبٌ

وجذورُ روحي زنبقٌ ونخيلُ

أنا نطفةٌ أبديةٌ وليَنتثر

أيدي الرياح الزور والتدجيلُ

قاسٍ يقينُ الحبِّ، قاسٍ أنهُ

أغضى اليقينُ وكابَر التأويلُ

وأمرُّ من كأسِ الحمام قتيلةٌ

في شعرها المحلول نام قتيلُ

وأصيحُ من غضب أصيحُ ولوعةٍ

عارُ الحضارةِ شعرُكِ المحلولُ

وطني، فلسطيني، فمي ولواعجي

يفديكَ يومي والغدُ المأمولُ

هل عاش جيلٌ للشهادة والفدا؟

لا ضيرَ، سوف يعيش عرسكَ جيلُ

ما غادر الشهداءُ صدرَك عارياً

لكنّ ظهركَ خاذلٌ مخذولُ

دولٌ إذا نطقتْ بدت عربيةً

وفعالُها عَجَمٌ وإسرائيلُ

لكنها حالٌ تحولُ وإنها

دولٌ تدولُ ويحصُلُ التحصيلُ

قطعانَ جلاّدي! اقضمي وتجشأي

كَلأ الردى.. طَرْفُ الرعاةِ كليلُ

ودهورهم يوم الحساب هنيهةٌ

وحسابُهم عبْر الدهورِ طويلُ

وعلى ضجيجِ الأرضِ دَوَّت صيحةٌ

وعلى أجيجِ الشمسِ قامَ دليلُ

يا آخر الحكام! أولُ حكمةٍ

أن المشيئةَ ساعدٌ مفتولُ

ومشيئةُ الانسانِ زهرةُ طفلةٍ

يَبْلى عليها الصارمُ المصقولُ

يا آخر. الحكام، صمتاً، إنه

عدلُ الحياةِ مدى الحياةِ قؤولُ

فاستغلقوا واستغرقوا واستبسلوا

واسترسلوا وتطاولوا وأطيلوا

مهما اعتصمتم بالجيوش قوية

ولدي على أقوى الجيوش يبولُ

ورسالة الأحياءِ يسطع نورها

فوق الدياجر، والشهيدُ رسولُ

والموعدُ الميمونُ: قُدْسٌ حرَّةٌ

ملءَ الزمانِ وغزّةٌ وخليلُ!

(قصيدة الشاعر في حفل تأبين الشهيد فهد القواسمي في قاعة الكلية الابراهيمية- القدس العربية المحتلة ٢٢ شباط ١٩٨٥).

شـرف العائلـــة

تقولُ : " أحبكِ من كل قلبي ! "

وتجذبُ خاصرتي الجافِلة

فأهرب منك الى كهفِ رُعبي

وألجأُ للدمعة الذاهِله

وتعلمُ أنك بستانُ حُبِّي

وما تشتهي وردتي الذابلة

ولكنّ جسميَ ساحةُ حرب

يسمّونها "شرفَ العائلةْ"

تبشرني بحياةٍ سعيدهْ

وتفتحُ باسمي بلاداً جديدهْ

وتنثرُ تحت خطايَ النجوم

وتُقسمُ بالحبِّ أني الوحيدهْ

أجلْ يا حبيبي . أصدّقْ.لكنْ

إذا ما ضَعُفْتُ أصير شهيدهْ

يحنّي دمي مذبحاً من عظامي

يسمّونهُ " شرفَ العائلةْ "

حبيبي. أُحبكَ من كلِّ قلبي

وأعشقُ فيكَ بلادي وشعبي

ولكنَّهُم حرَّموا أن أراكَ

وبثّوا قبائلَهُم حول ثوبي

وسنّوا سكاكينهم فوق رأسي

ودقوا الطبولَ وهبّوا لصلبي

على خشباتِ صليبٍ عتيقٍ

يسمونَهُ " شرفَ العائلهْ "

حرامٌ علينا حبيبي حرامُ

عناقُ أصابعنا والغرامُ

صداقتُنا يا صديقي حرامُ

وضحكتُنا يا زميلي حرامُ

وأجسادُنا يا حبيبي حرامُ

وأشواقُنا يا رفيقي حرامُ

وكلُّ أناشيدنا باطِلَة

ففي صمتِنا "شرفُ العائلة"

وكلُّ مواعيدنا باطلة

فمن موتنا " شرفُ العائلة"

تقولُ "أحبُّكِ من كلِّ قلبي"

وتفضَحُني الألسنُ الجاهِلة

أقــولُ " أحــبــكَ مــن كــل قــلــبــي "

فــتــجــرحــنــي الأعــيُــنُ الــقــاتِــلَــة

تــقــولُ حــبــيــبــي. أقــولُ حــبــيــبــي

ويــذبــحُــنــي " شــرفُ الــعــائــلــة "..

(لحَّنها: رامي زيتون
وغنَّتها: سيدر جبران-زيتون)

حنّـاء العـروس

جَلْجِلْ بِصِفْدِك... إنها صمّاءُ

أُمُّ الزمان، وبنتُهُ عمياءُ

جلجل، وزلزل بالقيود عواصماً

يزني بها الأهلون والغرباء

واقبض على القضبان كفاً طالما

شبّت، فشبَّ على الهوان لواء

يـا فـارس الأغـلال، أيـة صـهـوةٍ

عـزّت عـلـيـك؟ وهـل عـصـت أمـداء؟

رابِـطْ وقـد بـكـت المـرابـط خـيـلـهـا

واصـمـدْ، ويـأس الـصـامـديـن رجـاء

ألـهَـمُّ هـمُّـك أمَّـةٌ مـوجـوءةٌ

وهـمـومـهـم جـاكـلـين أو وطـفـاء

لا بـأس إن هـم أودعـوك سـجـونـهـم

ألحـرُّ أنـتَ وإنَّـهـم سـجـنـاء

أشـبـاه أشـبـاه الـرجـال تـطـاولـوا

لـكـن لـتـقـصُـرَ مـنـهـم الحـوبـاء

ألقيد قيدك والمكبَّلُ بغيهم

ومصير سجّانيك كيف تشاء

فارفع جبينك للسماء وإنهُ

أرضٌ على أنقاضهم وسماء

ألسُّمر من لهو الشواطيء أزمعوا

أمراً، وأمرُكَ جبهةٌ سمراء

قبستْ لهيبَ الكادحين فضوّأتْ

بلهيب كدحك ثورةٌ شعواء

جلجل بصفدك.. إن ناقوسَ العلى

رسغٌ تثور وفكرةٌ حمراء

واضرب بموتك موتهم واصعد على

سقط المسوخ وقد بغى الجبناء

عربيةٌ ألفاظُهُم، قرشيةٌ

واذا سبرتَ فروحُهم عجماء

ولدى المعارك لا ترى أثراً لهم

ولدى الزعامة، كلهم زعماء

عقمت حلومُهُمُ وساءَ مآلهم

وبخزيهم يوم التراجح باءوا

أقوالهُم ما صحّ غير صحيحها

وفِعالُهم ما تأملُ الأخطاء

هل يذكر اليرموك صولة خالدٍ

أم أن ذاكرة الخلود هراء

ولمن يبوح المثقلون ودونهم

نقصَ المريضُ وزادت الأدواء

وأنا أسير الرومِ أنزف حسرتي

وتحزّ عنقي صيحتي الخرساء

للقدس صلباني وجلّقُ شاهدي

وتهلل الفسطاط: راحَ وجاءوا

ودمي على الأردنّ وردٌ ذابلٌ

فمتى يبلُّ صدى ورودي الماء

عمان قابلتي ومهد طفولتي

سلطٌ وحبلُ السرّةِ الزرقاء

والمعرضون إذا شكوت أحبتي

والأهل أهلي السذّج الفقراء

إن يضربوني فالعذاب عذابهم

والكاسبون الوِزرُ والوزراء

يا ابن الردى والشمس، جُرحكَ صيحةٌ

وبحبرِ جرحك تُكتب الأنباء

وعلى خطاك يُشجُّ ليلٌ باهظٌ

وتعود في أجسادِها الأسماء

فاخضدْ بقيدك ليلهمْ واصعد على

عتماتهم.. إنَّ الطريقَ مُضاء

ألشمس شمسُك والعروسُ جميلةٌ

والعرسُ عرسكَ.. والدَّمُ الحنّاء!!

(١٩٨٦)

أُعيذ الحق!

وَردُ الربيع أم الدَّمُ المتفجِّرُ

من أين لونك أيهذا المنظرُ؟

والزقزقاتُ، من العصافير التي

عادت، أم النائي الذي يتحسَّرُ؟

وبمن تلوذ سنابلٌ حبلى وقد

ضاع الأولى بذروا وضاع البيدرُ؟

سرٌّ وجهرٌ والشجون وفيرةٌ
ماذا نُسرّ من العذاب ونجهرُ

ونجيُّنا الليل المُملّ، وإنه
ليلٌ يطولُ على أناةٍ تقصُرُ..

وكبا الكلامُ فكل عَيٍّ مصقعٌ
وجذا الظلامُ فكل رَذمٍ قيصرُ

سَلستْ لكفِّ الأجنبيّ ذقونُنا
وعلى الظهورِ تربَّع المستعمرُ

فمن المحيط إلى الخليج سدانةٌ
مكسورةٌ.. وشَكيمةٌ لا تُكسرُ

ومن الظلامِ إلى الظلامِ محاجرٌ

مخضوبةٌ قهراً وجرحٌ ينغرُ

والدارُ.. قيل تقدَّستْ وتباركتْ

وعلى قبابِ القدسِ وبشٌ يسكرُ

ويبيح باسم الله كلَّ مُحرَّمٍ

ويلصُّ باسم الأنبياء ويقهرُ

فليستجر ربُّ العباد بربّهِ

وليعصم النسَّاكَ من أن يكفروا

للمبصرين صوارفٌ ومعاذرٌ

يا جنَّتي انتظري لَعَلِّي أُبصرُ

ولكلِّ مُفتئتٍ عليك بباطلٍ

يومَ الشواهد ميسمٌ متغوِّرُ

طفلٌ يشدّ إليه جثّةَ أمِّه

صوِّر إذن ما في غدٍ تتذكَّرُ

وامنحه سكّرةً وداعبْ شَعرهُ

يا أيهذا القاتلُ المتحضِّرُ

فبراءةُ السفّاح عدلٌ مطلقٌ

وجريمةُ المغدور، لا..لا تُغفَرُ!

ألليلُ طالَ، الليل طال، وفرَّختْ

في القلبِ أحزانٌ وأعسَرَ مُعسِرُ

ونمتْ على الأفق الرمادِ طحالبٌ

وانثال في السُّبُل الهَلامُ الأزْورُ

لكنها حالٌ تحولُ وإنَّها

دُوَلٌ تدولُ وكلُّ خافٍ يُسفِرُ

إنَّا لها، إنَّا لها، ويمينُنا

بعثُ الشهيد وموتنا المتكرِّرُ

إنَّا لها، دنيا تُخيِّرُ غيْرَنا

وتظلّ دنيانا التي تتخيَّرُ

ونبيُّنا طفلٌ تدثَّر بالردى

شيخاً وقام إلى الحياةِ يُبشِّرُ

غِـبَّ المُـحـول ممـضَّـةً بِـمِـطـالـهـا

شـغـفٌ عـلـى بـيـد الـضـمـائـر يُـزهـرُ

والـعـاشـقُ المـفـؤود شـعـبٌ صـائـمٌ

آلـى بـغـيـر إدام حـقٍ يُـفـطِـرُ

شـعـبٌ إذا عـزَّ الـبُـغـاةُ بـبـغـيـهـم

فـهـو الأعـزُّ مـن الـبُـغـاةِ الأكـبـرُ

مـن كـلِّ راسـخـة الـيـمـينِ وراسـخٍ

قـسـمـاً: نُـغـير عـلـى الـرّدى ونُـغـيِّرُ

بـيـضُ الـقـلـوب، عـلـى الخـنـى مـسـودَّةٌ،

والأخـضـر الـغـدُ، والـلـواء الأحـمـرُ!!

(١٩٨١)

توأمان

أتضنُّ المنى بخلٍّ وفيٍّ

حَدَّ إمكانِهِ انتهى مُستحيلُكْ؟

ويضيقُ المدى بآيةِ نورٍ

تحتَ ليلٍ يجُبُّهُ قنديلُكْ؟

لا وربِّ الجهاتِ. مهما تناءَتْ

عن سبيلي خُطاً نماها سبيلُكْ

لــن يــعــزَّ الخــلُّ الــوفــيُّ مــنــالاً

لا ولــن يُــعــوزَ الأصــيــلَ أصــيــلُــكْ

جــئــتُ فــامــنــحْ دمــوع عــيــنــيَّ صدراً

يــا خــلــيــلَ الــرحــمــن.. إنّــي خــلــيــلُــكْ

أظــمــأتْــنــي كــوارث الــدهــرِ دهــراً

فــلــيُجــرنــي مــن حُــرقــتــي ســلــســبــيــلُــكْ

وتــأمَّــلْ وجــهــي وجُــسَّ ضــلــوعــي

يــا ابــن أمّــي يــطــلُّ مــنــي جــلــيــلُــكْ

هــهــنــا نــحــن.. دمــعــتــان وجــفــنٌ

فــلــيُــكــفــكِــفْ عــذابَــنــا مــنــديــلُــكْ

ولنرتِّلْ جراحَنا صلواتٍ

لمقيلٍ، من عثرتي قد يُقيلُكْ..

ههنا نحنُ توءَمان عذاباً

لا تَقُل في العذابِ عزَّ مثيلُكْ

جئتُ فارفد نزيفَ روحي بعرْقٍ

يا خليل الرحمن.. إنّي خليلُكْ!

(١٩٩٣)

القصيدة الشامية..

ظَمِيءٌ. وأنتِ الكأسُ والصهباءُ

يا شامُ، فليتحلّقِ الندماءُ

حَكَم القضاءُ بغربةٍ مغبونةٍ

فقضى الكفاحُ بأن يتمَّ لقاءُ

وأتيتُ. لا متسلّلاً متخفياً

لكن بما يتخيَّلُ الخُيلاءُ

شفتي منصَّةُ أمتي. وهديرها

نورٌ تراهُ الأعينُ العمياءُ

لبَّيْكِ! ها أنذا أعانقُ إخوتي

ظمئاً يساقيه العناقَ ظِماءُ

أوَمِن ملامٍ لو عَصَبنا جُرحنا

وَحَنتْ علينا ليلةٌ قمراءُ؟

لي فيكِ من فجر الخليقةِ مجلسٌ

ثملتْ بطيبِ أريجِهِ الأرجاءُ

وبغيرِ فوْح العزِّ في جَنَباتهِ

ضَنَّ اللسانُ بأنكِ "الفيحاءُ"

وانفضَّ مجلسُنا بقدرةِ قادرٍ

وعلا على أقدارنا الضعفاءُ

بيضٌ صنائِعُنا.. وساءَ صنيعُهُم

سودٌ وقائعُنا. وبي سوداءُ

خُضرٌ مرابعنا.. وأفقي قاحلٌ

وهُمُ المواضي.. من دمي حمراءُ

وغدوتُ في وطنٍ كأنّ ترابَهُ

"صخرٌ".. وماء عيونه "الخنساءُ"

وأتيتُ بي وجعٌ أبثُّكِ بعضهُ

فعسى تخفِّفُ وطأهُ صعداءُ..

مــن جــمَّــعَ الأضــداد حــولَ تــخــومــنــا

فــبــغــى الــبــغــاةُ وعــربَــدَ الــدخــلاءُ؟

وبــأيّ قــســطــاسٍ يــراجــحُ عَــدْلَــنــا

وحــشُ الــبــحــارِ، وحــيّــةٌ رقــطــاءُ؟

قــدرتْ عــلــى الــوَهَــن المــكــبَّــل قــدرةٌ

وعــنــا لــتــجّــارِ الــدمِ الــفــقــراءُ

وســلــمــتِ لــي يــا شــامُ دون ســلامــتــي

ومــكــثــتِ. فــلــتــتــبــدَّلِ الأنــبــاءُ

غَــبَــرتْ أمــيّــةُ فــي زمــانٍ غــابــرٍ

لا بــأس أنّــا الــصــفــوةُ الجُــلــســاءُ

صبَّي حُميّا المجدِ في لهواتنا

فلَكَم عَطِشنا، والخنا سقاءُ

كَرُمتْ أصولٌ أنتِ بعضُ فروعها

فلْتنضج الأثمارُ كيفَ تشاءُ

أهلٌ. ونعم الأهل. كانوا وانقضوا

سُنَنَ الحياةِ. وها هُمُ الأبناءُ

ياشامُ. جئتُ. فلا تريني مفرداً

في مهجتي أهلُ العروبةِ جاءوا

عَسُرتْ على كِبْرِ الأكابِرِ وَحْدةٌ

عسرتْ،، فيسَّر أمرها البسطاءُ

ما شتَّتت شمل العروبةِ زعزَعٌ

إلا ولمّتْ شملها نكباءُ

وتحاكُ من مِزَقِ الشعوبِ حبائلٌ

وعلى الهوانِ تُبجَّلُ الأهواءُ

ينمو على عودِ النميمةِ مفسدٌ

بمشيئةٍ من قيصرٍ مَشّاءُ

ويقوم في ليلِ المقابرِ قائمٌ

وعلى المنابر يلغطُ الخطباءُ

يعظونَ بالحسنى. وأحسَنُ وعظِهم

أنْ: فرِّقوا ما جمَّعَ الآباءُ!

والشرُّ علمُ الغربِ قُبِّحَ عالماً

والخيرُ دولاراتُهُ الخضراءُ!

ويعلِّمونَ بجهلهم علماءَهم

ليقال في جهلائهم: عُلماءُ

باسمِ المذاهبِ يحشدون حشودَهم

ومع المذاهبِ تذهبُ الآراءُ

سنيَّةٌ. شيعيّةٌ. علويّةٌ.

درزيّةٌ. والمؤمنونَ سواءُ

قبَسوا من القرآن ضوءَ قلوبهم

ومن الأناجيل استقوا فأضاءُوا

أيَضيرُ تغلبَ أن نصرانيّةً

وَلدتْ. فكانَ الإخوةُ الخُلَصاءُ؟

أصلابُ يعربَ لم تلدنا خلسَةً

لو أنكرتنا دايةٌ شمطاءُ

عربيةٌ غاياتنا. عربيةٌ

راياتنا يا أيها الفقهاءُ

نحنُ المسمَّى. والمسمّى واحدٌ

عربٌ.. إذنْ فلتكثُر الأسماءُ!

يا شامُ. أعلمُ أنَّ قلبي زاعمٌ

ما لا يُقرُّ السادةُ الزعماءُ

لـــكـــنَّ بـــي نـــاراً أســـرُ أوارَهـــا

لأجـــنَّـــةٍ. ســـتـــكـــونُ لا مـــا شـــاءوا

يـــا شـــامُ أعـــلـــمُ أنَّ عـــمـــري عـــابـــرٌ

حـــبـــراً عـــلـــى ورقٍ. وســـفْـــري المـــاءُ

وأصـــيـــحُ مـن وجـــعٍ. فـهـل مـســتـكـثَـرٌ

لـــلأمِّ فـــي أبـــنـــائـــهـــا إصـــغـــاءُ؟

نـــاديـــتِ. لـــيـــتـــكِ الجـــوارحُ. قـــبـــلَـــمـــا

أذنَ الـــعـــذابُ بـــأن يـــكـــونَ نـــداءُ

نـــاديـــتِ. هـــا أنـــذا جـــنـــونـــي واضـــحٌ

لاهـــنـــدُ فـــاتـــنـــتـــي. ولا وطـــفـــاءُ

نَصَبَ الهوى ميزانَهُ. وتساءَلوا

ما كفّتاهُ؟-أنتِ والشهباءُ

ناديتِ. ها أنذا. جنوني فادحٌ

أرضٌ تضيقُ بلفحِهِ وسماءُ

مجنونُ ليلى واحدٌ بعذابِهِ

وأنا. عذابي أمَّةٌ ليلاءُ!

لو مسَّ قاهرةَ المعزِّ معكِّرٌ

صفواً، هلعتُ: وكيفَها صنعاءُ؟

وإذا بكتْ بغدادُ ألحفَ هاجسٌ

قدساهُ! يا قدسي. أفيكِ بُكاءُ؟

وأهــيـمُ وجـداً. غـيــرَ مـا وَجِـدَ الــورى

ولــدى جـنــونـــي يـبـرأ الـعـقــلاءُ!

وســـوايَ يُـــثــري: ثــروةً أو ثـــورةً،

وبـغـيـر "مـال الـشــام" مـا الإثــراءُ؟!

شــامـيّــةٌ هـلَّـت. فـأنـكَـرَ شـانِــيءٌ:

"من تلك؟". قـلـتُ: حبيبتي الحسناءُ!

شـامـيّـةٌ. نـطـقـتْ فـصـيـحَ جـمـالـهـا

نُـطْـقـاً تـلـعـثَـمَ دونَـهُ الـبُـلَـغـاءُ

"شـقـراءُ". قـالـوا. قـلـتُ ذلـك سـرُّهـا

شـقـراءُ.. لـكـنْ روحُـهـا سـمـراءُ!

قبَّلْتُها زقَّ الحمامِ، فقبّلتْ

قلبي. وبان السرُّ والإسراءُ

وهتفتُ: لو جنّاتُ عَدْنٍ أقفرتْ

ممَّن نحبُّ، فإنها جرداءُ!

نزَّهتُ قلبي عن غرامٍ زائلٍ

فقسا عليَّ الحبُّ والبغضاءُ

وقسا على سقط اللواعج لاعجي

فقسا عليَّ الأهلُ والغرباءُ

وقسوتُ. حتى لا تلين قصائدي

إلا لصدقٍ.. ظنَّهُ الشعراءُ!

وأنا أسيرُ الروم. طفلٌ ضائعٌ

ضاقت به السرّاءُ والضّراءُ

من قَبْل يُتم الوالدين تيتَّمتْ

لغتي. وضاعَ الإرثُ والورثاءُ

كسروا جناحَ طفولتي وتسلّقتْ

كنفي المهيضَ أشاوسٌ فُصَحاءُ

وهوامشٌ عربيةٌ قرشيَّةٌ

ومتونُها روميّةٌ عجماءُ

وشواربٌ شمّاءُ قحطانيةٌ

يا شامُ. لكنَّ الوجوه طلاءُ

فيهم من الفرسانِ كلُّ مفوَّهٍ

ومن السلاحِ، قصائدٌ عصماءُ

صالوا وجالوا في ثيابِ نسائهم

واستأنسوا إذ حمحم الأعداءُ

قالوا الجهادَ على غزاةِ ربوعنا

والفعلُ، حربٌ بينهم شعواءُ

وينزُّ جرحي صارخاً. وتصمُّ عن

جرحي البليغ الصخرةُ الصمّاءُ

ويطلُّ صوتكِ آسياً بجراحهِ

وتهلُّ كفكِ هذه السمحاءُ

ناديتِ. فاستبَقتْ نداءَك لهفةٌ

فيها التقى الأحرارُ والسجناءُ

ناديتِ. جئتُ ولم أجيء. فتأمَّلي

وجهي يُطلُّ رجالُكِ القدماءُ

أنا من هناك. ومن هناك. ومن هُنا

بموالدي تتجدَّدُ الصحراءُ

لم يغتنم جسدانِ مضجعَ يعربٍ

إلا وكانت نطفتي العرباءُ

وقضى ورائي ألفُ دهرٍ أليلٍ

لم يقضِ فيها كوكبي الوضّاءُ

أقبلتُ.. يحملني حنينٌ جارحٌ

مدّي يديكِ فأدمعي حنّاءُ

لكِ فيَّ من سفحِ الجليلِ زنابقٌ

سوداءُ، في عُرفِ الهوى بيضاءُ

رشفتْ من الجولانِ قبلةَ نسمةٍ

أنفاسُها ما حشرجَ الشهداءُ

وتحيةٌ عربيةٌ سوريةٌ

يحيا بها أبناؤكِ الشرفاءُ

الأوفياءُ سريرةً ومسيرةً

يوم التَوَتْ سُبُلٌ وعزَّ وفاءُ

والناهضون وفي الأكفِّ بيارقٌ

لم يطوها الإرغاءُ والإغراءُ

لكِ فيَّ باقةُ لوعةٍ، فتساءلي

ما عطرُها؟ أزنابقٌ؟ أدماءُ؟

وخذي يديَّ إلى يديكِ. وهدهدي

جرحاً، له في أن سلمتِ شفاءُ

سفري طويلٌ. والمسالكُ وعرةٌ

وتعبتُ. حتى ارتاحت الوعثاءُ

ظَمِيءٌ أنا. أشفي الغليلَ ببلّةٍ

يا شامُ! وليتحلّق الندماءُ!!

(١٩٩٦)

ألقصيدةُ اللبنانيّة

لا تأسَ. حالُكَ في المواجعِ حالي

ولديكَ. يا سندي. جوابُ سؤالي

لو صحتُ " مالي والعذاب " لَصحتَ من

جُبِّ الرَّدى " ما للعذاب ومالي؟ "

غربي وشرقُكَ شُرفتا قنّاصةٍ

وَجنوبك الدامي جبينُ شمالي

كُلُّ الجهاتِ تقاسمتْ أشلاءَنا

والأهلُ شأنُ نعامةٍ ورمالِ

شعبٌ. شعوبٌ. في الشِّعابِ تشعَّبوا

شُعَباً. وما شبعوا من الإذلالِ!

خَطَبوا. فما وَسعَ الفصاحةَ منبرٌ

وتلعثموا في ساحةِ الأفعالِ

أهلٌ. تخلَّى اللهُ عن أصلابِهم

لا كانَ ما آلوا إليهِ مآلي

نسجوا بمنوالِ البيارقِ. وادَّعَوا

بعضَ البريقِ. وأحرقوا منوالي

ونهضتُ من موتٍ. فلاموني وقد

خَسِروا رثاءَ شجاعتي ونضالي!

لبنانُ. يا ابن أبي وأُمي. باعني

يا عمّ. عَمُّكَ. يومَ باعَكَ خالي

كنَّا. وكنتَ. وكنتُ. ساحة دبكةٍ

وفتىً يطيرُ وراءَ رقَّة شالِ

أسكرتَ بالعرق الحلال مطالعي

وملأتَ من عنب الجَمال سِلالي

وعليكَ من حَبَقي مِلاءَة سهرةٍ

وعليَّ منكَ عَباءَةُ الأزجالِ

قلبان من عَرَبٍ. ومن ذهَبٍ ومن

طَرَبٍ. أعانا واقعاً بخيالِ

كم أرزَةٍ مالت على زيتونةٍ

وعريشةٍ. حنَّتْ إلى عرزالِ

لكنَّهُم قدموا. بخيل خرافةٍ

صكَّتْ سنابكُها شموخَ جبالي

كسروا سياج حديقتي وتعلَّقوا

بمشاجبي. واستوطنوا سروالي!

وتقاسموا ذهَبَ العروس غنيمةً

وتهافتوا نبشاً على أطلالي

قدموا بأجنحة الجحيم. وَأشعلوا

وَجَع النوى في سَحْبَة الموّالِ

واستمرأوا حُلماً يراودُهم بأن

ضربتْ صليبى ريحُهُم بهلالي

وصحوا. فما قانا الجليل متيحةٌ

خمراً.. وفي قاناكَ كأسُ مُحالِ

والحال. ما اجترحتْ عجائبُ سِحْرهم

إلا عجائبَ من دمٍ وضلالِ..

لبنانُ. أنفاسُ المحبِّ وديعةٌ

وهواكَ يطلبُ شهقةَ الزلزالِ

وأنا عليلٌ بالحنين إلى يدٍ

نعناعةٍ مشكورة الأفضالِ

وأتوقُ لوصنينُ يُهدي قُطنةً

من ثلجهِ. للجُرح في عيبالِ

وفمي على رمل الصحارى قبلةٌ

ظمئتْ. ولَيسَ سوى مناهل آلِ

ويدايَ خلفَ الظَّهرِ شوقٌ جامحٌ

والحزنُ باب مُحكَمُ الإقفالِ

يسطو العبيدُ على جُذى حُرِّيَّتي

فأجرُّ تحت رمادهم أغلالي

أنذا أسيرُ الرومِ. جلدي بُردُهم

وسياطُهُم لهبٌ عَلى أسمالي

وأطلُّ من زنزانتي لأرى على

قسمات وجهكَ محنتي وهزالي

وأرى زهورَ دمي ربيعاً ذابلاً

يبكي.. وَتضحكُ زهرةُ الصَّلصالِ

لبنانُ. ألقِ إلى المحبِّ جديلةً

من أرزِ بَوْحكَ للنهارِ العالي

شوقي إليكَ يهيجُهُ خوفي على

شوقي إليكَ من العذاب التالي

وعلى سفوحكَ إخوةٌ وأحبَّةٌ

في البال يوم فراقهم. في البالِ

سَألوا فقيلَ رحيلُكُم يومٌ. وما

عَلموا بيومٍ فاضَ عن أجيالِ

شاخوا. وشخْنا في الزمان. ولم نَزَل

في الحُلم صِبْيَةَ روضةِ الأطفالِ!

أهلي ضيوفُكَ. والعيونُ بصيرةٌ

وقصيرةٌ أيدي المُضيف. خَوالِ

فاغفرْ وقد طالتْ عليكَ ضيافتي

واصبرْ على المقسوم من أهوالي

لي خلفَ أُفقكَ نجمةٌ ميعادُها

أَجَلٌ يصارع لعنةَ الآجالِ

لبنانُ. يا ابنَ أبي وأُمي. إنها

كأسٌ وتعبُرُ.. حنظلي وزُلالي

ويكونُ ما سيكونُ. لبنانيّةٌ

تلدُ المسيحَ. بحطَّتي وعقالي

ويكونُ ما سيكونُ. تُبعثُ مكَّةٌ

من مكَّةٍ.. ويعودُ صوتُ بلالِ

ويكونُ ما سيكونُ. يبرأُ يعربٌ

من عُقمه.. ويعجُّ كلٌّ خالِ

ويتغيَّرُ الأحوال عدلُ دمائنا

ونرى المسمَّى الحيَّ في أسمائنا

وتضيءُ شمسُ الله مجد سمائنا

لبنانُ. نحنُ مغيِّرُ الأحوالِ!

(١٩٩٧)

ألقصيــدة العُمانيــة

(في رحلته الأولى إلى سلطنة عُمان، كان على سميح القاسم أن يمكث أكثر من تسع ساعات في ترانزيت المطارات، من اللد إلى عمّان إلى دُبيَ إلى مسقط. وعبر انتقالاته هذه سكنه هاجس تراثيّ ولّدته لديه تجربة العودة إلى ساعد الأمّ الصحراء، وإلى الساحل العمانيّ المجيد العريق، على مخارج خليج عُمان وبحر العرب، ومداخل الربع الخالي الرائع الرهيب الرحيب. وتبلورت في هذا الهاجس أبيات القصيدة التي منحها صاحبها اسم "ألقصيدة العُمانية"، احتفالاً بعودته إلى منابته الأولى في شبه جزيرة العرب، قبل نيف وألف عام.. وقد سجّل تلفزيون سلطنة عُمان هذه القصيدة بصوت الشاعر).

طَفْحُ الثلوجِ. ولَفحةُ النيرانِ

قِسطٌ. وميراثُ الرَّدى قِسطانِ

وأنا الوريثُ. حملتُ نعش طفولتي

شلواً يتيماً ظَنَّهُ أبَوانِ

وأقمتُ حُرّاً في السجونِ، ولم أزلْ
حُرّاً، وقيدي مُثقِلٌ سجّاني

كثُرتْ عليَّ من النوازِلِ طُغمةٌ
كثرتْ وقلَّ على المكانِ مكاني

ووقفتُ للنكباتِ، صدراً عالياً
ويداً تُشيرُ ليعبُرَ الحَدَثانِ(*)

متوحّداً بين النهارِ وليلِهِ
وزمانُ أهلِ الأرضِ غيرُ زماني

يَوْمي على الألوانِ شَقَّ، وإنّني
خمسونَ حَوْلاً لم تُحِلْ ألواني

واستبدلتْ حولي اللغاتُ وجوهَها

والوجهُ وجهي. واللسانُ لساني!

لكنَّ بي وَجَعاً أُكفكِفُ نارَهُ

بغدٍ. وأمسي مُشْعلُ أحزاني

أمسي. وتنزو في ضلوعي غُصَّةٌ

كَظَمتْ، وقاراً، غُصَّةَ البُركانِ

لو لم يكنْ أهلي سبايا يأسِهِم

لَيَئِستُ من ناري وَصَبْرِ دُخاني

أَو لم يكن أهلي ضحايا بؤسهم

لشكوتُ ما اقترفوهُ من حِرْماني

هَجَروا المهادَ وطفلُهُم في مَهْدِهِ

نَهْبَ الرياحِ وشهوةِ الطغيانِ

ولدوهُ للنسيان. في أهدابِهِ

وفي شَفَتيهِ رَجْعُ أذانِ

"ألله أكبَرُ". صيحةٌ مذبوحَةٌ

أصداؤها في ذمَّةِ الرحمنِ..

وإقامةٌ منفيٌ. وجُرحٌ ناغرٌ

ومُدىً مدرَّبَةٌ على الشريانِ

ويصيحُ طفلُ الموتِ ملءَ عذابِهِ

ويدقُّ باباً.. خلفَهُ بابانِ

ويبوحُ من تَعَبٍ ومن عتبٍ ومن

غضبٍ. يبوحُ بلوعةِ الهجرانِ

غنّى المغنّي للأمومةِ. ذاكراً

أفضالَها. وأمومتي تنساني!

لكنّهُ نسغٌ يمدُّ جذورَهُ

وفروعَهُ بشفاعةِ الإيمانِ

وإرادةٌ شبَّتْ على أطواقِها

فلينهضِ الإنسانُ في الإنسانِ

أنذا الفلسطينيّ. شَدَّ جراحَهُ

وطناً يُضَوِّيءُ عتمةَ الأوطانِ

وأنـــا شـــآمـــيٌّ، ومـــصـــريٌّ، ومـــن

شَـغَـفٍ وصـلـتُ جـزائـري بـعُـمـانـي

وَغَـسَـلْـتُ فـي طُـهر الـفـراتِ خـطـيـئـتـي

وجـعـلـتُ روحَ الـنـيـل مـن كُـهّـانـي

وحـمـلْـتُ وردةَ يـعـرُبٍ. حِـرْزاً عـلـى

شـوكٍ يـكـونُ. ورُقْـيـةً لـكـيـانِ

صَـعَـدْتُ مـن أفـقٍ إلـى أُفـقٍ إلـى

أُفـقٍ. ومـا كـانَ الـبُـراقَ حـصـانـي

لـكـنَّ مـيـراثَ الجـدودِ رسـالـةٌ

نـادتْ. فـلـبَّـى حـارسُ الـوجـدانِ

شفتي لميثاقِ العروبةِ منبرٌ

أعلى. وحرفي فارسُ الفُرسانِ

ويدي على النكباتِ فُلْكٌ صاعدٌ

من كلِّ جنسٍ أمَّهُ زوجانِ

وورثتُ أيوبَ العذابِ وصَبْرَهُ

وورثتُ نوحاً. فليكنْ طوفاني

يَبْلى على لحمي الحديدُ. وتنحني

لدمي زحوفُ الفُرسِ والرومانِ

وأموتُ. لا للموتِ. لكنْ للرضا

بحياةِ رَغْدٍ. في رضا رضوانِ

مـن قسـمـةِ الـشُّـهَداءِ أطـلـبُ قـسـمـتـي

روحـاً يـعـافُ تَـواصـلَ الـقُـمـصـانِ

هـذا أنـا. نـورُ الـتـجـلِّـي هـاجـسـي

لا هـاجـس الـشـهـواتِ فـي الأبـدانِ

وأنـا مـن الـصـحـراء نـبـضُ مَـرابـعٍ

ومَـراجـعٍ ومـواجـعٍ وَمَـعـانِ

وأنـا ابـنُ يَـعـرُبَ. بِـكـرُهُ وصـغـيـرُهُ

وأخـيـرُهُ فـي عُـمـقِـهِ الـروحـانـي

أوصـى. فـمـا خَـذَلَ الـوفـاءُ أُبـوَّةً

ووصـيّـةُ الآبـاءِ ديـنٌ ثـانِ

أوصى. فيا روحَ الصحارى استيقظي

أسِنَ النعاسُ على قذى الأجفانِ

وصحا الجليليُّ المجلجِلُ عاصفاً

ومُبشِّرُ الراياتِ بالخَفْقانِ

أنذاهنا. من نخْلِ "مَسقَطَ" مُسقِطٌ

رُطَباً جنيّاً طابَ في بُستاني

ودَّعتُ بيتي المقدسيَّ. وجئتُكُم

قلباً يُباعِدُهُ الهوى قيُداني..

أنذا. ونحنُ. هنا. سلالةُ يَعْرُبٍ

ورسالةُ الإخوانِ للإخوانِ

عَرَبٌ إلى عَرَبٍ، وتفتحُ بابَها
جنّاتُ عَدْنٍ. يا بني عَدْنانِ
عَرَبٌ إلى عَرَبٍ، وتُبعَثُ أُمَّةٌ
من أُمَّةٍ خَطَرَتْ على الأكوانِ
ويجِّدُ الإدراكُ عهدَ رسالةٍ
سطعتْ من الإنجيلِ والقرآنِ
عَرَبٌ إلى عَرَبٍ،. وتُبصرُ وَجْهَها
شَمسٌ. وتذكُرُ مَجدَها النّورانيَ!

---

* الليل والنهار.

بائيـــة العـــرب

تـخـشَّـبَ الـوجـهُ.. أم مـرآتُـهُ خَـشَـبُ؟

أمْ أسفرتْ مهجةٌ، فاستعصت الحُجُبُ؟

وهـاجَـرَ الـنـورُ، أم سُـدَّتْ مـنـافـذُهُ

سألتُ شمساً، فردَّت بالصدى سُحُبُ

واستـنـفـر الـسـرُّ أسـراراً يـلـوذ بـهـا

وآثَـر الجـهـرُ ألا يُـحـرَجَ الأدَبُ

فغادرتني أغانٍ كُلُّها تعبٌ

وحاصرتني مراثٍ، بعضُها التعبُ

وأرسلتْ راحتي للقلب حيرتها

فكانَ، حيرانَ، من أضلاعِهِ يثبُ

وساورتني همومٌ لستُ فارِسها

فبتُّ في ظمأٍ، والوجدُ ملتهبُ

يَسحُّ جرحي على جرحي، ومن وجعي

تذوي الربابةُ، والمزمارُ يكتئبُ

وكدتُ من عجبي لا أدّعي عجباً

وكادَ من غضبي أن يغضبَ الغضبُ

بلادُ أهلي إذا استعطيتُ مانعةٌ

ولا يُردُّ لباغٍ عِرضَها طلبُ

سبيّةٌ، يمتطي الأغرابُ سُرَّتها

وأهلُها، طاريءٌ فيها ومغتربُ

مُنْيتُها وحدةٌ في الدهرِ واحدةٌ

ويومَ لامستُ عرَّتْ وهمها حقبُ

ها نحنُ. من نحنُ؟ أعرابٌ وباديةٌ

وجُهدُنا، ما تدرُّ النوقُ، والرُّطَبُ

قبيلةٌ يُسرها في عُسر جارتها

وصرخة اليُتم من أختٍ لها، طربُ

مـن نـحــن؟ هــا نــحــنُ. أوصـــالٌ ممــزقــةٌ

لا طُـنْـبَ يـشـفـعُ فـي وصـلٍ. فـهـل طُـنُـبُ؟

نـســجُ الـعـنـاكـب مـا يُـدعـى خـرائـطـنـا

ولــلــتــوجُّــس شــراً يمـثُــلُ الــســبــبُ

فــي كــلّ نــاحــيــةٍ، والأرضُ ســائـبــةٌ

تُــمـزِّقُ الــريــحُ، والأمــواجُ تــنــتــهــبُ

ولـــلـــغُــزاةِ جــمــوحٌ خــائــضٌ دَمــنــا

ولـــلـــطــغــاةِ عـلــى أشــلائــنــا نُـصُــبُ

آلــتْ–فـكـيـف؟–غـبـارَ الـنـاسِ أمَّــتُــنــا

وكـيـف حــالــت رمــاداً أرضـنــا الـذهــبُ!

تـصـارعـتْ فـي خـفـايـا سـرِّنـا أممٌ

لا نـحـن مـنـهـا ولا فـيـهـا لـنـا أرَبُ

كـأنـهـا ورثـت بـالـعـدلِ مـنـزلـنـا

ونـحـنُ مـقـتـحِـمٌ فـيـهِ ومـغـتـصِـبُ

مـن الـمـلـومُ؟ وفـيـنـا ضـافـيـاتُ أسـىً

طـامٍ، وصـوتُ دعـاةِ الـحـقِّ مُـقـتـضـبُ

مـنـائـرَ الـروحِ هـل غـشَّـتـكِ غـاشـيـةٌ

تـعـمَّـم الـجـهـلُ فـيـهـا والـتـحـى الـكـذِبُ

ونـازعـتْـنـا عـلـى الأوطـانِ نـازعـةٌ

والـظـلـمُ مُـتَّـزنٌ والأمـنُ مـضـطـربُ

ولا صباحَ بلا رؤيا مباعِدَةٍ

ولا مساءَ بلا عمياء تقتربُ

لأيَ يُتمٍ ترى آلتْ سلالتُنا

فليس يجمعنا في محنةٍ نَسَبُ

وأنكرتْ رحمها في العُسر والدةٌ

فبعدَ هاجرَ هل أمٌّ لنا وأبُ؟

أستغفرُ الله في إثمٍ يضيقُ بنا

ويزدرينا فلا تُستغفرُ الذُّوبُ

وتزدرينا الأماني دونَ مُحتسَبٍ

وتصطفينا المنايا كيف نحتسبُ

أستغفرُ الله في إثمٍ نضيقُ بهِ

ونزدريه، فتقفو كُربةً كُرَبُ

تلالنا لأزاهير الردى. ودمٌ

على المروجِ. وأسرابُ الرُؤى لَهَبُ

وزهوُنا بأناشيد الرضا غَرَقٌ

وجلبةُ الخلقِ في ساحاتنا هَرَبُ

ونسلُنا غلّةٌ للقفر غلَّتُها

وحالُنا حالُنا. والكونُ منقلبُ

وَسَادةٌ ثَلَّةٌ، ثُلَّت سيادتهُم

يحاصرون الغدَ الآتي بمن ذهبوا

للأجنبيِّ ارتضوا قربى على جَنَفٍ

وقاربتْهم قلوبُ الشعبِ، فاجتنبوا

تقلُّ فينا مع الأيام قلَّتُنا

وفيهمو تكثر الألقابُ والرُّتَبُ

قصورهم في ليالي الأنسِ راقصةٌ

على أغاني الهوى. والقدسُ تنتحبُ

ويثملونَ، وقد بتنا خوابيَهُم

وإن شَحَحْنا، فمن أحداقنا العِنَبُ

وجُلُّ أحلامهم أنّا نبايعهُم

وكلُّ أحكامهم أن تهلع الرُّكَبُ

كم لفُّقوه غداً نبكي على غده
وضَيَّعوا اليوم ما من أمسنا سَلَبوا

وينطقون، فما أنقى عروبتهم
ويفعلون، فتلحو نسلها العَرَبُ

ويُضرَبون علينا في مباذلهم
فلا يثور لهم عرقٌ ولا عَصَبُ

لا بارك الله في خلقٍ إذا صُفِعوا
وَقيل: ما الردُّ؟.. ردَّت عنهم الخُطَبُ

وباركَ الله في نارٍ تؤرِّثُها
ناري، فكلُّ طواغيت الخنى حَطَبُ

أنـا الـعـروبـةُ! أحـنـتْ ظـهـرهـا سِـنَـةٌ

طَـالـت وآن أوان الـصـحـو، فـانـتـصِـبـوا!

لـنـا المـواعـيـد أشـتـاتٌ يـلـمـلـمـهـا

مـسـتـقـبـلٌ فـي سـديـم الـغـيـب مُـرتَـقَـبُ

أنـا الـعـروبـةُ! فـائـتـونـي. أُعِـزَّ بـكـم

مـا يـرتـضـي الـلـه. والأسـلافُ. والـكُـتُـبُ!

(١٩٩٢)

ألممثّل

وأخيراً. ها أنتَ. يُرخي السّتارُ

في هدوءٍ. وتُطفأُ الأنوارُ

يخرجُ الناسُ. ثُلّةٌ فرادى

وتُجافي المقاعِدَ الأسرارُ

قُضيَ الأمرُ. مسرحٌ غادرتْهُ

في ختامِ المشاهِدِ الأبصارُ

وانسدالُ الغيومِ باتَ يقيناً

فَسَلِ الشكَّ هلْ همَتْ أمطارُ؟

حائرٌ أنتَ. هل أَجَدْتَ أَداءً

أَمْ تخلَّتْ عن دَوْرِكَ الأدوارُ؟

لم تُمثِّلْ. صغتَ الحياةَ فلا كُتَّابُ (م)

نصٍّ. والمخرجونَ ابتكارُ

لم تُمثِّلْ. كنتَ الجماهيرَ فرداً

واستعارَ الممثِّلَ النُّظَّارُ!

كنتَ من كنتَ. أَلفَ دورٍ ودوراً

والنِّهاياتُ خيبةٌ وانكسارُ

كنتَ قيساً. وعندَ ليلى خَيارٌ

ولعرضِ الأزياءِ كانَ الخَيارُ

أنتَ قلبٌ شريانُهُ الوجدُ. لكنْ

قلبُ ليلى شريانُهُ زُنّارُ

جئتَ ليلى في القرِّ تطلبُ ناراً

عُدْ كما جئتَ. ليسَ ثمّةَ نارُ

لم تُمثِّلْ. شُغفتَ حُبّاً بليلى

وفتاها المفضَّلُ.. الدولارُ!

لم تُمثِّلْ. أنطقْتَ قلباً جميلاً

فتَّحَ الوردُ فيه والجُلّنارُ

قيلَ قيسٌ من قومِ ليلى. كلامٌ

في كلامٍ. فقومُها التجّارُ!

إنّهُ الدَّورُ يا ممثّلُ. فاخترْ

دونَكَ الصمتُ مطبقاً.. والحوارُ

يا صديقي. ولم تُمثِّل فللخذلانِ (م)

أرضٌ. وللخطايا بِذارُ!

كنتَ من كنتَ في الجحيمِ رسولاً

ضاعَ. لا هجرةٌ. ولا أنصارُ

كنتَ من كنتَ. "خالداً" في السرايا

و"ابنِ زيدٍ".. وحولك الثوّارُ

لـــم تُــمــثِّــلْ. نـــزفــتَ روحَـــكَ حــرفــاً

تـــلـــوَ حـــرفٍ. وفـــي الـــعـــروقِ أُوارُ

صــادقٌ أنــتَ. والأكــاذيــبُ نــســغُ الــدورِ (م)

فـــاحـــذرْ. لـــن تـــشـــقَـــعَ الأَعـــذارُ!

لــفــظــةُ "المجــدِ" فــي الــقــوامــيــسِ نــامــتْ

و"المــعــالــي" أَغــفــى عــلــيــهــا الــغُــبــارُ

و"الــغــطــاريــفُ" لــفــظــةٌ هــجــرتْــنــا

و"المـــيـــامـــينُ" غُـــرُّهُـــم أَغـــرارُ

وشـــتـــاتٌ مـــا بـــينَ رومٍ وفُـــرسٍ

ومـــغـــولٌ تمـــضـــي ويـــأتـــي تـــتـــارُ

وطقوسُ البُهتانِ عيدٌ سعيدٌ

وصلاةُ الوجدانِ خزيٌ وعارُ

لا تُمثِّل. تحتَ المنصَّةِ لَغْمٌ

وعليها لغمٌ. وفيكَ انفجارُ

تُرهقُ الريحُ بالهبوبِ جناحاً

فلتؤمِّلْ ركودَها الأطيارُ

وإذا هوَّمَ النَّدامى سُكارى

ليسَ فرضاً أن يسكَرَ الخمّارُ

لا تُمثِّلْ يا صاحبي. بعدَ صَوْمٍ

يتسنّى لصبركَ الإفطارُ

هُوَ ومضٌ من بَرْقةٍ. فقلاعٌ

تتهاوى. وتنحني أسوارُ

ونزيفٌ من آخر القلبِ. نهْرٌ

ضفّتاهُ هزيمةٌ وانتصارُ

فانتصِبْ! وانتسِبْ! وَبُحْ: أنا مِمَّنْ

وَقفَ الكونُ ذاهلاً يومَ ساروا!

إنَّ عَيْشَ الأجسامِ عارٌ إذا الأجسامُ (م)

عاشتْ.. وماتت الأفكارُ!

وإذا عزَّ ظِلُّها وَجَناها

وَجَداها.. ما نفْعُها الأشجارُ؟

يا أخا العُرْبِ. حاذِرِ الدورَ. حاذِرْ
ما تفحُّ الأقلامُ والأوتارُ

حاذِرِ الدورَ. يا أخا العُرْبِ. فيهِ
يتساوى الأخيارُ والأشرارُ

حَبَكَتْهُ أيدي الخفاءِ قناعاً
خَلْقَةُ العارُ كامِنٌ والشَّنارُ

يا صديقي. ولا يَغُرَّنَّ حَشْدٌ
ألملايينُ جُلُّها أصفارُ

مُفردٌ أنتَ في الصِّراعِ وحيدٌ
والضَّلالاتُ جيشُها جَرَّارُ

فاسبُر النصَّ لفظةً تلو أُخرى

وتريَّثْ ليستقيمَ المسارُ

ضاقت الأرضُ يا رفيقي بما تنزفُ (م)

جَهْراً وأَعْسَرَ الإصرارُ

هكذا نحنُ. هكذا أنتَ. فاضرِبْ

بعصا السِّحْرِ. ولْتُشَقَّ الغِمارُ

آنَ للكَشْفِ أن يبوحَ بما يُضمِرُ (م)

غيْبٌ وتحجُبُ الأستارُ!

يا صديقي. في النَّصِّ بُستانُ لوزٍ

ونخيلٍ. وموسمٌ. وثمارُ

صَفحاتُ المؤلَفينَ قطوفٌ

دانياتٌ. من تحتها أنهارُ

كُلُّ شيءٍ كما يُرام لديهم

جنةٌ نحنُ أهلُها الأبرارُ

أيُّهذا الممثِّلُ الفذُّ فالعَبْ

كيفما شئتَ.. ليسَ إلا قفارُ!

كَذَبَ النصُّ. لا هنا الأهلُ أهلٌ

لا. ولا الدارُ يا صديقيَ دارُ

يخذلُ الطفلُ أُمَّهُ وأباهُ

وعلى جارِهِ يجورُ الجارُ

للحوارِ الرقيقِ وقعُ صُداعٍ

وذُوارٌ رَجْعُ النقيقِ. دُوارُ

هكذا نحنُ. يا لهاةَ المآسي

يُزعجُ الموتَ موتُنا المِهْذارُ

لا تُمثِّلْ. ولا تُمثَّلْ. عبيدٌ

نحن.. والوهمُ أنّنا أحرارُ!

صَلَبَ الكاتبُ الحقيقةَ. واغتالَ (م)

الحروفَ الرقيبُ.. والمنشارُ!

والمرايا تقولُ منّا وجوهاً

لا كلاماً له الوجوهُ الكِثارُ

والمرايا تَحْجُبُ وجهاً قديماً

حَزَّ فيهِ الترْدادُ والتَّكرارُ

طوَّحتهُ الرياحُ براً وبحراً

واستباحتْ نِثارَهُ الأهوارُ

هَبَّ أهلُ الكهفِ القدامى. ونمنا

ونَتلَهَّى بذكرنا السُّمَّارُ

أمسِ كانوا.. وأمسِ كانوا. وكانوا

وَمَلِلْنا. وَمَلَّنا استذكارُ

وطناً صارَ كَهفُنا. صار كهفاً

وطنٌ كيفَ جئتَهُ. فحصارُ

يـزحـفُ الـرمـلُ فـوقَـهُ. والأنـاشـيـدُ (م)

نمـــاءٌ. وخـــضـــرةٌ. وازدهـــارُ!

خَـــدَعَ الـنــصُّ روحَـــهُ. وأُهـــيـــنَـــتْ

لَـــــهَـــفـــاتٌ. وزُوِّرتْ أوطـــارُ

والإراداتُ طُـــرفـــةٌ. وافـــتـــراضٌ

عَـــبَـــثـــيٌّ. ولـــلـــرؤى مـــنـــظـــارُ!

ومـعـانـي الـقـامـوسِ غـيـرُ المـعـانـي

وحـــدودُ الـــنـــامـــوسِ ثـــوبٌ يُـــعـــارُ

ومُـــعـــارٌ زمـــانُـــنـــا مـــن زمـــانٍ

مُـــســـتـــعـــارٍ. زمـــانُـــهُ مُـــســـتـــعـــارُ

نحن في حضرةِ الحياةِ عُراةٌ

وَعَلَيْنا من خِزْيِنا أطمارُ

كرمُنا سابَ. والنواطيرُ نامتْ

فإذا المصرُ دونَنا أمصارُ

وإذا لحمُنا متاعُ الضواري

ناوَشَتْهُ الأنيابُ والأظفارُ!

ما الذي ظلَّ من حسابِ القرايا

والسَّرايا كما ترى أطوارُ

وصروف الزمانِ مدٌّ وجَزْرٌ

وَمَهاوٍ ما قرَّ منها قرارُ

ولـنسْـلِ الطُّـغـاةِ نَسْـلُ طُـغـاةٍ

والمـرابـي فـي صُـلْـبِـهِ سـمـسـارُ

وإذا مـالـت الـرقـابُ عـيـاءً

شَحَذَ الـنَّـصـلَ فـوقـهـا جَـزّارُ

فـاحـفـظ الـدورَ يـا صـديـقـيَ واحـفـظْ

حـكـمـةَ الـدَّورِ أيُّـهـا الـبـحَّـارُ

مـاهِـرٌ أنـتَ فـي الـسِّـبـاحـةِ لـكـنْ

مـاهِـرٌ ضـدَّ حُـلْـمِـكَ الـتـيّـارُ

لا تُـمـثِّـلْ. خـبـزُ المـسـارِحِ مُـرٌّ

والحـلاواتُ دونَـهـا أقـدارُ

لا تُمثِّلْ. كَفافُ يومِك دارٍ

أنَّ طَعْمَ الإبداعِ ما تشتارُ

وضجيجُ الأخبارِ للبَغي لكنْ

خبرَةُ الحقِّ ما لها أخبارُ

عَلَّمَتكَ الأيامُ درساً فدرساً

فإذا الشاسعُ المدى أشبارُ

يا صديقي. وحكمةُ اللهِ عُمْرٌ

لا شيوخٌ تحكي ولا أحبارٌ!

كنتَ من كنتَ. قيصراً وابنَ رُشدٍ

والنَّجاشيَّ. كنتَ أنتَ فصاروا

جُستَ سرَّ الأسرارِ. عايشتَ بوذا

وابنَ سينا ودارَ فيكَ المدارُ

جُنَّ تمّوزُ في جنونِكَ حُبّاً

يا صديقي. وخادَعَتْ عشتارُ

كنتَ جلجامشَ التعيسَ وإنكيدو (م)

وباحتْ بسرِّكَ الآبارُ

كنتَ أيّوبَ محنةٍ بَهَظَتْها

محنةُ الصمتِ والأسى هدّارُ

يا فنارَ الأيامِ غرقايَ كُثرٌ

فأَغثني ببعضِهِم يا فنارُ

مَنْ ملوكُ الشطآنِ. أَهيَ الصحارى

روحُ روحي. أمِ الملوكُ البِحارُ؟

وَفيافي الرحيلِ تطوي خَبالي

وابتهالي: قلْتَنْجُ لي آثارُ!

غارقٌ في الرمالِ. والبحرُ ساجٍ

وقلوعي يشطُّ عنها المزارُ

عازفٌ مرهقٌ وَعُودٌ هشيمٌ

وأغانٍ يغتالُها القيثارُ

غَرَّمَتْها أصائلُ الموتِ يُتماً

وأناختْ بثُكْلِها الأسحارُ

أين؟ يا أينَ، يستقيمُ صراطي؟

كيفَ؟ يا كيفَ، يُقبِلُ الإدبارُ

آدميٌّ هذا الممثِّلُ. لا نصفُ (م)

إلهٍ، ومارِدٌ جبَّارُ

آدميٌّ. طينٌ على النارِ. فامثُلْ

لاقتحامِ الصَوَّانِ يا فخَّارُ!

أنتَ مَثَّلْتَ. لم تُمَثِّلْ. تقمَّصْتَ (م)

الخفايا، فأسفرتْ أغوارُ

يا صديقي غامرتَ في ألفِ فجٍّ

واستزادتْ أسفارَكَ الأسفارُ

جُبْتَ أقْصى الرؤيا بأدنى المرايا

وتشظَّيْتَ. فالفضاءُ انبهارُ

حيثُ تخطو على المجرَّاتِ نَجْماً

يتغاوى ليلٌ ويُغوي نهارُ

يا صديقي. ووحدكَ الآن تذوي

ويُذرِّي خريفَكَ الإعصارُ

وحدكَ الآنَ. لاشتباهِ المعاني

ولحُكْمِ الإدراكِ ما يختارُ

ألبُطولاتُ دَوْرُها ليس يُشفي

والهيولى حدودُها أعمارُ

وَحْـــدَكَ الآنَ. وَحْـــدَكَ الآنَ. عُـــمْـــرٌ

يـتــهــاوى.. وَمَــسْــرَحٌ يــنــهــارُ!!

(حزيران ١٩٩٩)

